الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية من منظور الاستشراق الروسي

الطالب/ قردان الميلود
المركز الجامعي مرسلي عبد الله-تيبازة(الجزائر)
mouloudradwane@hotmail.com

تاريخ الإيداع: 2017/08/04 تاريخ القبول: 2017/08/13

الملخص:

ظل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية محل جدل كبير بين مؤيد ومعارض، وقد خاض النقاد الجزائريون والفرنسيون على حد سواء في هوية الأدب الجزائري وجنسيته القومية، غير أنّ هناك أصوات استشراقية روسية قد اهتمت بدورها بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إنتاجا وتأريخا وتأصيلا أيضا، من هذا جهودالمستشرقة الروسية سيفتلانا برجوغينا والمستشرق الروسيروبرت جريروفيتش لاندا والمستشرق الروسي أيضا وغيرهم كثير، من أجل هذا نحاول في هذه الورقة البحثية المتواضعة تقصي استقبال المستشرقين الروس للأدب الجزائري عموما والمكتوب بالفرنسية على وجه الخصوص وكذا موقفهم الدقيق من هويته وجنسيته القومية.

الكلمات المفتاحية: الأدب الجزائري- الاستشراق- المستشرقون الروس- العربية/الفرنسية-الهوية-الاستعمار الفرنسي-الترجمة.

Resume

The Algerian literature written in French continued as a big controversial issue between supporters and opponents. Both the Algerian and French critics has already engaged in the identity of the Algerian literature and its national citizenship. However, there were some Russian orientalists voices who studied the Algerian literature written in French in terms of production, history and rooting like the Russian orirentalists Svetlana Projoguina and Gureguero Robert Landa among many others. In this paper, we try to investigate the Russian orientalists perception of the Algerian literature in general and the one written in French in particular, and their exact attitude of its identity as well as its national citizenship.

Key words: The Algerian literature- Orientalism- The Russian orientalists- Arabic/French- Identity- The French Colonialism- Translation.

لقد أثار مصطلح الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية جملة من الإشكالات المنهجية والإديولوجية حول ماهيته و دقة تصنيفه، وقد تضاربت الآراء حول جنسيته الأدبية، بين قائل إنه أدب جزائري محض لا غبار عليه، وبين من يعدّه أدبا فرنسيا محضا استنادا إلى الأداة اللغوية التي كُتب بها، ورأي ثالث يعدّه أدبا فرنسيا ذو روح جزائرية، وبين هذه الآراء المتضاربة وجد نفسه هذا الأدب نفسه في دوامة البحث عن الشرعية الأبوية الأدبية ، وبناءً على ما سبق فإنّ فكرة موت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية التي شاعت في ستينيات القرن المنصرم تبدو نسبية اليوم إلى أبعد الحدود. ولعلّ هذه القضية لم تشغل فكر الباحثين المغاربيين على وجه الخصوص بل تناولته أقلام المستشرقين بمختلف جنسياتهم كالفرنسيين والبريطانيين والبولونيين وغيرهم كثير، بيد أنّ المستشرقين الروس أفردوا مساحة واسعة للبحث والتنقيب في جذور هذا اللون الأدبي المثير للجدل. وعلى هذا الأساس تحاول هذه المداخلة المتواضعة أن تنهض بالإجابة على جملة من الأسئلة لعلّ أهمها:

كيف تناول المستشرقون الروس الأدب الجزائري عامة والمكتوب بالفرنسية على وجه الخصوص؟ وهل فصل المستشرقون الروس فس مسألة أبوّة هذا الأدب من عدمها؟ وكيف هي مكانة تلقي الأدب الجزائري بشقيه لدى النخبة في روسيا؟

تطرح قضية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إشكالات كثيرة منذ ظهوره و إلى غاية اليوم، و لا يبدو أنّ النّقاد و الكتّاب سيستقرّون على حلٍّ وسط يرضي جميع الأطراف الفاعلة، والمهتمة بهذا اللّون الأدبي الذي عرفته الساحة الأدبية العربية بسبب الازدواجية اللغوية، والتي كانت نتاجا طبيعيا للحقبة الاستعمارية الفرنسية ، والتي ابتليت بها دول شمال افريقيا و سوريا و لبنان.

و لعلّ هذه الازدواجية قد لا نلحظها بشكل كبير و فاعل لدى الدول التي تسلط عليها الاستعمار الأنجلوساكسوني مثلما نجدها لدى الدول التي رزحت تحت وطأة الاستعمار الفرنكفوني لاسيما الجزائر، التي عمل فيها المستعمر الفرنسي جاهدا على طمس الهوية الوطنية ومحاربة اللغة العربية من خلال التضييق على المدارس الحرة التي أسستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وحزب الشعب الجزائري بمبادرة الخيّرين والمخلصين من أبناء الوطن، و لم يتوان الاستعمار الغاشم لحظة واحدة في الزجّ بالمعلمين الأحرار في السجون، و تلفيق مختلف التهم السياسية و إلصاقها بهم، و التي تعدّ الواحدة منها كافية ليقضي أحدهم ما تبقى من عمره في غياهب السجون، بل و اعتبر الاستعمار تعليم اللغة العربية جريمة يعاقب عليها بموجب القانون الفرنسي لأنها لغة أجنبية، و لم يبق من يعلم العربية إلا بعض الكتاتيب المنتشرة في الأحراش والجبال و أقاصي الصحراء و بعض الزوايا، لذلك لم يجد الشعب الجزائري بُداً من إلحاق أبنائهم بالمدارس الفرنسية، والتي كانت تغرس في نفوس الناشئة من الجزائريين أفكارا استعمارية سامة، على شاكلة فرنسا الوطن الأم، و الجزائر قطعة فرنسية، والعرب غزاة متوحشون، والفتح الإسلامي لشمال إفريقيا احتلال واغتصاب، وبغية تحصين أبناء الجزائر من هاته الأفكار القاتلة، كان بعض الجزائريين من يتبع نظاما خاصا في تعليم أبناءه و ذلك بإلحاقهم بُعيد صلاة الفجر بالكتاتيب لحفظ القرآن، و لتعلم قواعد العربية، ثم يلتحقون بعد ذلك بالمدرسة الفرنسية، و بعد انتهاء ساعات الدوام يعودون من جديد إلى الكتاتيب تنمية لمناعتهم الفكرية، و بالمقابل هناك فئة أخرى كان تعليمها تعليما فرنسيا محضا، أُشربوا حبّ الثقافة الفرنسية حتى أضحوا ينافسون الفرنسيين أنفسهم في لغتهم و ثقافتهم و نمط عيشهم، مع الإشارة إلى التفرقة و التمييز العنصري كانا حاضرين بقوة بين أبناء الأهالي من جهة، و بين أبناء الفرنسيين و المعمرين في المدارس الفرنسية من جهة أخرى، و غالبا ما كان يطرد التلميذ الجزائري المتفوق لأتفه الأسباب حتى يقطعوا عليه طريق النجاح من أول خطوة .

كل هذه العوامل و غيرها أسهمت في خلق الازدواجية اللغوية وتنميتها مما أوجد جيلا من الكتاب الجزائريين يكتبون بلسان وقلم أجنبيين باللغة الفرنسية، وذلك بسبب هيمنة اللغة الفرنسية و ظروف تلك

الحقبة المظلمة من تاريخنا الوطني، هذا الجيل الذي أسّس لمرحلة جديدة في الكتابة، لم يلق الإجماع والقبول من طرف النخب الأدبية و الثقافية في الجزائر، بل وعُدّت الكتابة باللغة الفرنسية جهلا و تفريطا في اللغة العربية و عدم إلمام بالتاريخ الإسلامي التليد، الذي أشعّت حضارته على الدنيا بأكملها ردحا من الزمن، حيث كانت العربية اللغة الرسمية لهاته الحضارة الإنسانية، وها هو عبد المالك مرتاض في طليعة هؤلاء الرافضين لهذا الانبهار و التهافت الذي أصاب بعض الكتاب الجزائريين، إذ يقول : "و قد ظل هؤلاء الكتاب في معظمهم معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص، و الحضارة الغربية بوجه عام، جاهلين بالتاريخ العربي، غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية، إذ أنّى لهم أن يدركوا شيئا من ذلك و هم محرمون من الإلمام الكافي بلغتهم، التي بواسطتها يطّلعون على التراث العربي و كنوز حضارته الغنية بمعطياتها الإنسانية، اطلاعا حقيقيا خاليا من الشوائب و الشرور "[1].

و مع تنامي الوعي الوطني و الفكر السياسي القومي، أصبح الكتّاب الجزائريون بالفرنسية موضع اتهام من طرف المجتمع الجزائري لاسيما نخبه العربية المثقفة، و نتج عن ذلك أن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أضحى يتخبط في إشكالات نقدية و فكرية، حول جنسيته، و هويته، و خصوصيته ورسالته .

فمن حيث التسمية نجد أنّ هذا الأدب لم يتخذ اسما واحدا، بل تخفّى وراء تسميات متعددة، فمنهم من يطلق عليه اسم الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ، و أخر يسميه الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، وثالث ينعته بالأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري .

أمّا من حيث الجنسية و الهوية فإن مدارس الأدب المقارن تختلف جذريا فيما بينها، فمثلا المدرسة الفرنسية ترتكز على عنصر اللغة كعامل محدِّد و فاصل في تحديد هوية النص الأدبي، على خلاف المدرسة الأمريكية التي تستبعد عنصر اللغة و تعوّضه بعامل القومية كشرط لإجراء الدراسة المقارنة حول تحديد هوية النص المقارن .

و إذا حاولنا تطبيق مبدأ المدرسة الفرنسية التي تعتمد على عنصر اللغة كعامل محدد لهوية النص الأدبي، تعترضنا إشكالات كثيرة حول تحديد هوية الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة فرنسية، فهل هو أدب فرنسي خالص، لسبب بسيط و هو الأداة التي كتب بواسطتها و هي اللغة الفرنسية، أم أنّه أدب جزائري بلسان فرنسي لأنّه و إن كتب فعلا بلغة فرنسية لكن مضمونه يختلف عن الأدب الفرنسي، فهو يدافع عن آلام و آمال الجزائريين في التوق إلى الحرية و الانعتاق، ويفضح ممارسات الاستعمار الوحشية و هو ما يناقض الأدب الفرنسي الذي تبنّى في الغالب الأطروحة الفرنسية الزاعمة أن الجزائر قطعة فرنسية، أم أنّه أدب فرنسي لأنه كُتب بلغة فرنسية لكن بمضمون جزائري و بالتالي لا يمكن تصنيفه على أنه جزائري و لا فرنسي، و هنا يصبح النص الأدبي في حالة تيهٍ يبحث عن أُبوّته الشرعية.

من أجل هذا يبقى الإشكال قائما و مطروحا ليس بين جمهور النّقّاد و الدارسين فحسب، سواء في الجزائر أو في الضفة الأخرى من المتوسط، بل نجد هذا التّباين قائما بين الكتاب الجزائريين أنفسهم الذين يكتبون باللغة الفرنسية، فقد ردّ مالك حداد بعنف على زملائه من الكتاب الجزائريين، الذين اتخذوا من الفرنسية أداة للتعبير و الكتابة في مقال له نشر سنة 1961 بعنوان **" الأصفار تدور في الفراغ "** " les zéros tournent en rond "، و قد أعاب الكاتب على أبناء جلدته من المفرنسين التشدّق بإبداعاتهم وأعمالهم الأدبية المنشورة باللغة الفرنسية، و لفت انتباه زملائه إلى ضرورة التوقف الفوري عن الكتابة باللغة الفرنسية مع الخيوط الأولى لفجر الاستقلال، لأن مهمتهم تنتهي بمغادرة آخر جندي فرنسي لتراب الوطن، و كان أكثر جرأة من غيره عندما أقرّ و صرّح بعبارته الشهيرة " اللغة الفرنسية منفاي و لذا قرّرت أن أصمت " .ردّا على "غابريال أوديزيو " الذي قال ": (Gabriel Audisio)إن وطني هو اللغة الفرنسية أجابه "حداد":" الفرنسية هي منفاي .La langue Française est mon exil) (هذه الظاهرة (ظاهرة الغربة، والنفي، والانفصام (أسماها "حداد" "باليأس الفني (Désespoir Technique) "وهي تعبير عن جهله باللغة العربية.

و عرفانا من جيل الاستقلال لوطنية هذا الكاتب المبدع ، صدّرت أحلام مستغانمي روايتها الأولى "ذاكرة الجسد بهذا الإهداء لروح مالك حداد : "إلى مالك حداد...ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألاّ يكتب بلغة ليست لغته... فاغتالته الصفحة البيضاء ...و مات متأثرا بسلطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية، و أول كاتب قرّر أن يموت صمتا و قهرا و عشقا لها "[(2)].

في حين أن كاتب ياسين صاحب رائعة " نجمة " يرى أن اللغة الفرنسية غنيمة حرب و في الحرب لا يهم أن تكون البندقية ألمانية أو فرنسية أو روسية، و يتبنّى الكاتب المفرنس " مولود فرعون " طرح زميله فيقول : أنا أكتب بالفرنسية لأقول للفرنسيين إنّني جزائري.

هذا فيما يتعلّق الجدل الدائر بين الكتاب المفرنسين فيما بينهم، أما في الجانب الآخر و هم الكتّاب الجزائريون الذين يكتبون بالعربية ، فقد انقسموا على أنفسهم هم كذلك ، قسم أعطى شهادة ميلاد متأخرة بشرعية الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة فرنسية ، لأنه حمل هموم الوطن، و دافع عن حقه في الحرية و الانعتاق، ومن بين هؤلاء الكتاب الكاتب الكبير "عبد الله الركيبي"، إذ يقول : " و جملة القول فإنّ الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية قد أوجد لظروف و أسباب في مرحلة معينة، و هو إن كُتب بلغة أجنبية فإنه عبّر عن مضمون جزائري و واقع وطني، الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا "[(03)].

و على نقيض هذا الرأي يقف الدكتور "عبد المالك مرتاض" بخصوص هوية هذا الأدب، إذ ينفي عليه صبغته الوطنية والقومية، بل يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يصفه بالضعيف و العاجز عن الدفاع عن نفسه، فضلا أن يدافع عن القضية الوطنية، فيقول: " إن هذا الأدب غريب في نفسه، و منفي عن موطنه

الذي كُتب فيه، و لم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء الثورة التي قيّضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة " [04].

ولعلّه من الإنصاف أن نقول إنّ الناقد الكبير الدكتور "عبد المالك مرتاض" كان قاسيا بعض الشيء في إصدار حكمه على هذا الأدب الذي يحفظ لنا التاريخ أعمالا أدبية خالدة ،كُتبت باللغة الفرنسية ، لكن بروح جزائرية ، **كرصيف الأزهار لا يجيب** لمالك حداد ، و رواية **إبن الفقير** لمولود فرعون ، و رواية **نجمة** لكاتب ياسين ، و غيرها من الأعمال الأدبية التي أسقطت القناع الحضاري الزائف للاستعمار الفرنسي الذي تتزين فيه ساحات باريس بشعارات كاذبة زائفة ، كالحرية و الأخوة و المساواة ، و المفارقة العجيبة هي أن هؤلاء الكتاب الذين وُفقوا في إكمال دراستهم باللغة الفرنسية كان الاستعمار يُعوّل عليهم كثيرا ليكونوا أداة مسخ و طمس لهويتهم، فإذا بالسحر ينقلب على الساحر، فيُفضح هذا الاستعمار بالأداة التي وظّفها وراهن عليها كثيرا للنيل من هوية هذا الوطن وتاريخ أبناءه، ألا و هي اللغة الفرنسية، و في هذا ألمٌ مضاعف، ونكسة قاتلة للمستعمر الغاشم .

أما في الجانب الآخر، ونعني بهم الكتاب الفرنسيون، فقد تباينت آرائهم كذلك حول جنسية و هوية هذا الأدب، فمثلا نجد أنّ" charles boun "، يصنّف هذا الأدب على أنّه مزدوج الهوية، إذ يحمل في داخله الهوية الأوروبية أو الغربية مثلما يحمل الهوية العربية، ذلك لأنّه تغذى من الثقافتين في آنٍ واحد،" و لا نستطيع تحديد الأولى إلا بالثانية، غير أن الحضور الإيديولوجي هو الذي يحتّم عليه تحديد قوميته، أو هويته العربية الجزائرية دون الإشارة إلى اللغة، و هذا التّحديد لا يمكن أن يكون له أي معنى إلا في حضور العنصر الأجنبي المتمثل في اللغة و الثقافة العربية " [05].

ويخالف" Jean Dejeux" الرأي السابق في كونه الأدب المغاربي ذو اللسان الأجنبي، و على رأسه الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون باللغة الفرنسية لا يخرج عن كونه أدبا مغاربيا بمعنى ينتمي لهوية و قومية كاتبه بصرف النّظر عن اللغة التي كُتب بها " سيظل الكاتب المغربي باللغة الفرنسية يمثل مغرب اليوم، في ثقافته وتحولاته و تساؤلاته، على الرّغم من كونه يحمل البصمة الأجنبية في كتاباته " [06].

وعن هذا السجال الدائر يبدي آمين الزاوي رأيه حول هذا الموضوع لا سيّما وأنّه من الكتّاب الجزائريّين القلائل الذين زاوجوا في إبداعاتهم بين اللّغتين (العربية/الفرنسية) وإن كان هواه إلى الفرنسية أميل، يقول الزاوي :" حين أطلق الروائي والشاعر مالك حداد (1927 . 1978) عبارته الشهيرة والتي قال فيها إنّ اللغة الفرنسية هي منفاي ثم قال فيما بعد، غداة الاستقلال، مع استرجاع الجزائر لاستقلالها واسترجاعها لهويتها الثقافية: لم يعد هناك داع للكتابة باللغة الفرنسية، ثم صمت عن الكتابة وقاطعها. ثم توالت تصريحات وأحكام كثير من النقاد الجزائريين من الجيل الجامعي الأول (الدكتور عبد الملك مرتاض والدكتور عبد الله

الركيبي وغيرهما) والذين أعلنوا فيها وبصيغ مختلفة وإيمانية متفاوتة بأن الموت هو مآل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. ولكن ما الحال وقد مضى على هذا القول والتخمينات الثقافية قرابة النصف قرن؟ هل تحققت بالفعل نبوءة هؤلاء النقاد من أساتذتنا الذين نكن لهم احتراما كبيرا؟...لقد بدأ الحقل اللغوي الإبداعي يدفن شيئا فشيئا فكرة نهاية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية مع صعود ظاهرة الروائي ياسمينة خضرا (محمد مول سهول) وهو الذي تربى في المؤسسة العسكرية الجزائرية، إذ لا غبار عليه من حيث الموقف السياسي أو التربية الوطنية، وذلك بنشره مجموعة من الروايات التي أدهشت القارئ في المعمورة قاطبة وترجمت إلى لغات كثيرة، وهو ما سجّل عودة قوية للأدب الجزائري على الساحة الوطنية والعالمية.[07].

و مهما يكن من أمر ومهما تباينت الآراء و الرؤى حول جنسية هذا الأدب، فإنّنا نرى أنّه بات من الضروري الإقرار بشرعية هذا المولود الأدبي، و الاعتراف بجنسيته الجزائرية، حتى و إن كان بلسان أجنبي، ذلك أنّه لا يمكن دراسة الظاهرة الأدبية من حيث كونها ظاهرة إنسانية بمعزل عن الظروف المحيطة بها، وهذا ما ينطبق تماما على كُتّاب تلك الحقبة الزمنية الكالحة، والتي عانى فيها الشعب الجزائري من ظلم وجور الاستعمار الفرنسي، إذ لم يجد الكتاب الجزائريون المفرنسون من وسيلة لمقارعة هذا الاستعمار الصّليبي غير اللغة الفرنسية، بوصفها الوسيلة الأكثر نجاعة و فعالية، وذلك من خلال النّزول إلى الطبقات الاجتماعية الكادحة، و نقل الآمها و بؤسها و معاناتها، في زمن كانت فيه الأصوات الداعية للذوبان و الاندماج في المجتمع الفرنسي ترتفع شيئا فشيئا، ومسيطرة على الحقل الثقافي آنذاك ، فمثلا " شكّل ظهور رواية **الدار الكبيرة** "لمحمد ديب "سنة 1952 منعطفا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على مستوى المضمون، فلأول مرة تتجاوز فيه هذه الرواية صالونات المثقّفين و مناقشاتهم الفوقية عن العدالة والمساواة في ظل الحكم الاستعماري، و وهم التّعايش السلمي بين الأهالي و المعمرين عن طريق الدعوة إلى الاندماج و الزواج المختلط، لتنزل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع، و تتحدث عن هموم الناس البسطاء من عامة الشعب، وتصف أحوالهم المعيشية القاسية ومعاناتهم من الجوع و الفقر و القهر، ولأول مرة تتحدث عن النّضال السياسي الجزائري، و عن مناضلين يعيشون في الخفاء، مطاردين من قبل البوليس الاستعماري، و لأول مرة تطرح تساؤلات محدّدة و صريحة عن الهوية الوطنية، و عن مفهوم الوطن و عن الهوية الحقيقة للجزائريين "[08].

إنّ هذا الأدب وقف في عمومه مع القضية الوطنية، واحتضن الفكرة الوطنية، وأوقد جذوتها لدى جمهور القراء المفرنسين على الأقل، والذين كانت تساور بعضهم الشكوك في وجود الأمة الجزائرية أساسا، فضلا على وجود الوطن الجزائري. إنّه لمن الإجحاف و الظلم الذي لا يستسيغه العقل و لا المنطق، أن نبخس جيلا من الرعيل الأول من الكتاب المفرنسين، الذين واجهوا الاستعمار بالقلم و بسلاحه، فكانت كتاباتهم ضربة قاسية في نحور المنظرين الاستعماريين، الذين كانوا يعقدون آمالا عريضة على هؤلاء الكتّاب الجزائريين

المفرنسين ليكونوا الأداة الطيّعة التي تُلمّع صورة الاستعمار القبيحة لدى العالم، و يبشّرون لأطروحة الرسالة الحضارية و الإيجابية للاستعمار في شمال إفريقيا لاسيما الجزائر.

المستشرقون الروس وتلقي الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية: لا يمكننا الحديث عن تلقي المستشرقين الروس للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية دون ذكر الجهود المضنية التي بذلتها المستشرقة الروسية سيفتلانا برجوغينا التي أفردت حيّزا واسعا من مجال اهتماماتها ودراساتها ووقفته على الدراسات الأدبية المغاربية عموما والجزائرية على وجه الخصوص، لاسيّما بعد اختيارها للجزائر مقاما لها بعد استرجاعها للاستقلال، وقد استقر موضوع رسالة بحثها للدكتوراه حول الأدب الناطق باللغة الفرنسية في شمال افريقيا.(09).

وقد حظيت الأعمال الأدبية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بنشر واسع وترجمات أوسع بالاتحاد السوفياتي وروسيا فيما بعد وهذا بفضل جهود المستشرقين الروس ونذكر على سبيل المثال لا الحصر المجلد الفائز بالكأس الذي يحوي رواية رشيد بوجدرة هذه الأخيرة، وجبل بنات آوى لمالك واري، وصمت الرماد لقدور خمسجي، وقد قدّمت له المستشرقة بروجوغينا بمقال عنوانه أدب المنتصرين، وبلغ توزيعه حوالى خمسين ألف نسخة، مثلما تمّ نشر أعمال الروائي الكبير مالك حداد سأهبك غزالا، رصبف الأزهار لايجيب.(10)

أمّا محمد ديب فقد خُصّص له مجلد خاص وذلك في إطار سلسلة أرباب النثر المعاصر التي كانت تصدر عن دار رادوغا للنشر،وكانت المستشرقة بروجوغينا صاحبة المقدمة كالعادة.

إنّ هذا الاهتمام الاستشراقي الروسي لم يغفل مسألة هُوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، فالمستشرقة بروجوغينا التي أولت عناية فائقة للأدب المغاربي عموما والجزائري على وجه الخصوص، لاسيما في مؤلفاتها "أدب بلدان المغرب المكتوب بالفرنسية" 1973، و"الكتاب المعبرون بالفرنسية في الستينات والسبعينات" 1980، و " حدود الثقافات-حدود العصور" 1984 التي اعتبرت هذا الأدب متطورا ومتماشي مع السيرورة الأدبية من جهة واشتراكه من الناحية التصنيفية بالسيرورة العامة لتطور الأدب العالمي بالنظر للمراحل التي قطعها (مرحلة ما قبل الثورة، مرحلة الثورة، مرحلة مابعد الثورة أو الاستقلال).

وقد أجمل عبد العزيز بوباكير آراء المستشرقيين أو النقاد الروس حول مسألة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في النقاط التالية:

01- إلغاء معيار التفرقة بين الأدب المكتوب بالفرنسية والأدب المكتوب باللغة العربية واعتبارهما فرعين من من ظاهرة واحدة على الرغم من اختلاف الأداة والوسائل الفنية.

02- الاعتراف للأدب الجزائري بشقيه (العربي/الفرنكفوني) بفضله في الإسهام في معركة الكفاح والتحرر.

03- عدم اعتبار الأدب الصادر عن كتاب فرنسيين أو الفرنسيين المولودين بالجزائر كآلبير كامو وغيره أدبا جزائريا

04- الأدب المكتوب بالفرنسية من قبل كتاب جزائريين وإن كانت أداته فرنسية فإنّ مضمونه جزائري خالص يعبر عن هموم الشعب وقضاياه الوطنية في معركة تحريره من الاستعمار الفرنسي.

05- وجود فرعين لأدب واحد بأداتين مختلفتين هو شكل من أشكال الوعي الاجتماعي المتنوع.(11)

في الواقع لم يقتصر اهتمام المستشرقين الروس على الأدب المكتوب بالفرنسية من لدن أدباء جزائريين، وإنّما تعدّاه إلى الأدب المكتوب باللغة الوطنية أو الرسمية وهي اللغة العربية وتجلّى هذا الاهتمام في تلك الدراسات المختلفة والترجمات المتتالية لأعمال أدبية جزائرية كدراسات المستشرق روبرت جريروفيتش لاندا حول روايتي اللاز والزلزال للطاهر وطار التي عدّها " أول رواية جزائرية باللغة العربية تترجم إلى اللغة الروسية 1979 وهي تشهد مثل اللاز على نمو مهارة الكتاب الجزائريين ذوي التعبير العربي، وعلى اتساع آفاقهم الإبداعية، لقد شرع هؤلاء الأدباء في الانتقال الحاسم من القصص الوجدانية القصيرة في غالبيتها والقصص التنويرية الهادفة إلى التعميم الجريء للمشاكل الاجتماعية الكبرى والتحولات الجذرية في الحياة الوطنية."(12)

ونبقى مع الروائي الكبير الطاهر وطار الذي نال قدرا وافرا من الاهتمام الروسي فقد كان محل دراسات باحثين روس وترجمت رواياته إلى اللغة الروسية على يد المستشرق ديمتريميكولسكي الذي اشتغل بمعهد بلدان آسيا وافريقيا التابع لجامعة موسكو أين أثبت براعته وإلمامه بتاريخ الحضارة الإسلامية،وقد تعرّض في دراسته أيضا لصاحب ريح الجنوب عبد الحميد بن هدوقة وكتب عنه أوراقا بحثية وشارك في ترجمة رواياته مثلما صنع مع مواطنه الطاهر وطار(13)

وخلاصة القول إنّ الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة فرنسية- لاسيما بعد مجازر 08 ماي 1945- في الحقيقة هو أدب جزائري ناصع، تحدث بلسان الآخر عن الذات الجزائرية، عن الأنا الجزائرية ، عن الأرض عن الدم، عن الهوية المهدّدة في عمقها وجوهرها، عن التّاريخ عن الجذور، و لم تشغله ساحات فرنسا الواسعة، ولا قصورها الفخمة، ولم يغره تدفق مياه نهر السين يشق باريس إلى نصفين، ولا قصر فرساي، بل شغلت باله صرخات المعذّبين في مداشر الجزائر وقراها التي تكالب عليها الاستعمار والجهل والفقر والمرض من خلال رواية **الربوة المنسية** لمولود معمري، ومعاناة الشعب الجزائري الفقير من خلال رواية **ابن الفقير** لمولود فرعون، وأرّقته المطاردات البوليسية المتواصلة للمناضل الجزائري الثائر في رواية **الحريق** و**الدار الكبيرة** لمحمد ديب، مثلما ألهبت حماسه الثورة الجزائرية في **سأهبك غزالة** لمالك حداد.

إنّ هذا جهود المستشرقين الروس في تلقي الأدب الجزائري الحديث سيما المكتوب منه بالفرنسية جهود جبارة لا يمكن للباحث في حقل الأدب المغاربي عموما والجزائري على وجه الخصوص تجاوزها أو إهمالها وإن كانت هذه الجهود تحتاج إلى من يميط اللثام عنها وذلك راجع لأسباب متعددة لعل أهمها تراجع التبادل الثقافي بين الجزائر وروسيا خصوصا بعد انهيار المعسكر الشرقي ، وعلى الرغم من هذا كله فإنّ الباحثين الروس قد تركوا بصمتهم الجلية في تاريخ الأدب الجزائري الحديث لاسيما المكتوب منه بالفرنسية سواء بفعل الترجمة أو من خلال آرائهم النقدية الموضوعية في ذلك المخاض العسير الذي مرّ به الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، في دوامة البحث عن هويته، ومحاولته إثبات ذاته.

هوامش البحث:

1. مرتاض عبد المالك: نهضة الأدب العربي في الجزائر (1925 - 1954)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط.02، 1983، ص 26.
2. أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، دار الآداب بيروت، 2000، ط.15، ص 05.
3. عبد الله الركيبي: القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط.01، 1983، ص 249.
4. مرتاض عبد المالك: نهضة الأدب العربي في الجزائر، مرجع سابق، ص 06.

5 Bonn -Charles-la situation algérienne national ; après l'indépendance –paris notre libraire 85 oct. 1986 ,p 36 .

6 ARNAU jean- la littérature de lange française paris ,T 2 le cas de kateb Yacine , publi sud , 1982 ,p 606 .

7. الشروق اليومي: 08/04/ 2009.

08. أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته و تطوره و قضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 106.

09.ديميتري ميكولسكي: ترجمات النثر الجزائري الحديث إلى اللغة الروسية- مجلة دراسات في الترجمة وتحليل الخطاب- جامعة عباس الغرور- خنشلة-
العدد 01- أفريل 2016- ص 60.

10.المرجع نفسه ص 61/60.

11.عبد العزيز بوباكير: الأدب الجزائري في مرآة استشراقية روسية- دار القصبة للنشر- الجزائر-2002-

12. مجلة التبيين- العدد 08-أفريل 1994- ص 40.

13. ينظر: عبد العزيز بوباكير-خذوا عربيتكم عن هذا الأعجمي- الخبر- 2010/12/24.